

التحرير والتنوير

والبطائن : جمع بطانة بكسر الباء وهي مشتقة من البطن ضد الظهر من كل شيء , وهو هنا مجاز عن الأسفل . يقال للجهة السفلى : بطن , وللجهة العليا ظهر , فيقال : بطنت ثوبي بآخر إذا جعل تحت ثوبه آخر , فبطانة الثوب داخله وما لا يبدو منه , وضد البطانة الطهارة بكسر الظاء , ومن كلامهم : أفرشني ظهر أمره وبطنه , أي علانيته وسره , شبهت العلانية بظهر الفراش والسر بطن الفراش وهما الطهارة والبطانة , ولذلك اتبع هذا التشبيه باستعارة فعل : أفرشني . فالبطانة : هي الثوب الذي يجعل على الفراش . والطهارة : الثوب الذي يجعل فوق البطانة ليظهر لرؤية الداخل للبيت فتكون الطهارة أحسن من البطانة في الفراش الواحد . والعرب كانوا يجعلون الفراش حشية , أي شيئا محشوا بصوف أو قطن أو ليف ليكون أوثر للجنب , قال عنتره يصف تنعم عبلة : .

تمسي وتصبح فوق ظهر حشية . . . وأبيت فوق سراة أدهم ملجم فإذا وضعوا على الحشية ثوبا أو خاطوها بثوب فهو البطانة , وإذا غطوا ذلك بثوب أحسن منه فهو الطهارة . فالمعنى هنا : أن بطائن فرش الجنة من إستبرق فلا تسأل عن طهارتها فإنها أجود من ذلك , ولا ثوب من الثياب المعروفة عند الناس في الدنيا أنفس من الإستبرق البطائن بالذكر كناية عن نفاسة وصف طهارت الفرش .

والإستبرق حرير من غليظ نسيج : والديباج . الغليظ الديباج من رفيع صنف : والإستبرق A E ينسج بخيوط الذهب . قال الفخر : وهو معرب عن الفارسية عن كلمة " استبرك " بكاف في آخره علامة تصغير " استبر " بمعنى تخين , وقد تقدم في سورة الكهف , فأبدلوا الكاف قافا خشية اشتباه الكاف بكاف الخطاب , والذي في القاموس : الإستبرق : الديباج الغليظ معرب " أستروه " , وقد تبين أن الإستبرق : صنف من الديباج , والديباج : ثوب منسوج من الحرير منقوش وهو أجود أنواع الثياب .

ومن (جنى الجنتين) : ما يجنى من ثمارهما , وهو بفتح الجيم ما يقطف من الثمر . والمعنى : أن ثمر الجنة دان منهم وهم على فرشهم فمتى شاءوا اقتطفوا منه .

(فبأي آلاء ربكما تكذبان [55]) وهو مثل نظائره .

(فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس ولا جان [56] فبأي آلاء ربكما تكذبان [57] كأنهن الياقوت والمرجان [58]) ضمير (فيهن) عائد إلى فرش وهو سبب تأخير نعم أهل الجنة بلذة التأنس بالنساء عن ما في الجنات ون الأفنان والعيون والفواكه والفرش , ليكون ذكر الفرش مناسبا للانتقال إلى الأوانس في تلك الفرش وليجئ هذا الضمير مفيدا معنى كثيرا من

لفظ قليل, وذلك من خصائص الترتيب من هذا التركيب .

ف (قاصرات الطرف) كائنة في الجنة وكائنة على الفرش مع أزواجهن قال تعالى (وفرش مرفوعة إنا أنشأناهن إنشاءً فجعلناهن إيكارا) الآية .

و (قاصرات الطرف) صفة لموصوف محذوف تقديره نساء , وشاع المدح بهذا الوصف في الكلام حتى نزل منزلة الاسم, ف (قاصرات الطرف) نساء في نظرهن مثل القصور والغصن خلقة فيهن, وهذا نظير ما يقول الشعراء من المولدين مراض العيون, أي مثل المراض خلقة . والقصور : مثل الغصن من صفات عيون المها والطباء , قال كعب بن زهير :

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا ... إلا أغن غصن الطرف مكحول أي : كغصن الطرف وهو الطبي .

والطمث بفتح الطاء وسكون الميم مسيس الأنثى البكر, أي من أبكار . وعبر عن البكارة ب (لم يطمثن إنس قبلهم ولا جان) إطناباً في التحسين, وقد جاء في الآية الأخرى (فجعلناهن إيكارا) . وهؤلاء هن نساء الجنة لا أزواج المؤمنين اللآئي كن لهم في الدنيا لأنهن قد يكن طمثنهم أزواج فإن الزوجة في الجنة تكون لآخر من تزوجها في الدنيا .

وقرأ الجمهور (يطمثن) هنا, وفي نظيره الآتي بكسر الميم . وقرأه الدوري عن الكسائي بضم الميم وهما لغتان في مضارع طمث . ونقل عن الكسائي التخيير بين الضم والكسر . وقوله (إنس قبلهم) أي لم يطمثن أحد قبلهم, وقوله (ولا جان) تتميم واحتراس وهو إطناب دعا إليه أن الجنة دار ثواب لصالح الإنس والجن فلما ذكر (إنس) نشأ توهم أن يمسهن جن فدفع ذلك التوهم بهذا الاحتراس .

وجملة (كأنهن الياقوت والمرجان) نعت أو حال من (قاصرات الطرف)